شَهِيدٌ فِى خَيْبَر

شهيدٌ فى خيْبَر-١:

عن سلمة بن الأكوع – رضى الله عنه – قال :خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى خيبر، فسرنا ليلاً، فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيهاتك ؟ وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو القوم، ويقول :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا و لا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فداءً لك ما اقتفينا وثبت الأقدام إن لاقينا

و ألقين سكينة علينا إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله-صلى الله عليه وسلم :" **من هذا السائق؟** " فقالوا: عامر بن الأكوع .

فقال :" يرحمه الله ".

فقال رجل من القوم : وجبت يا نبىّ الله، لولا أمتعتنا به .

قال سلمة : فأتينا خيبر، فحاصرنا هم حتى أصابتنا مخمصة شديدة ...

(حديث صحيح أخرجه البخارى وآخرون.)

....

هذه قصة نبوية تقدم لنا طرفاً من أحداث غزوة خيبر التى تكلّلت بنصر الله للمسلمين بعد عناءٍ شديد، وقتال عنيف. والقصة يرويها سلمة بن الأكوع، وتضىء بعض الجوانب المهّمة فى طبيعة النفس الإنسانية، وهى تعمل، وتسافر، وتجاهد، وتقاوم الجوع، وتواجه العدوّ، وتصبر على المتاعب حتى يقضى الله أمراً كان مفعولاً.

و خيبر، مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع، وتبعد عن المدينة ثمانية بُرُدٍ فى اتجاه الشام، والبريد جمع بريد وهو مقياس من مقاييس المسافات التى كانت معروفة فى زمن البعثة المحمدية، ويساوى الآن حوالى عشرة أميال مع اختلاف فى تقدير مسافته، ولكن المدينة تقع على بعد خمسة وتسعين كيلومترٍ شرق المدينة؛ ومنطقة خيبر واسعة ترتفع عن سطح البحر بنحو خمسين وثمانمائة متر، وتضم

عدة قرى و مدن و تقع مدينة خيبر في وادى الزبدية أكبر وديان المنطقة ، و كان يسكنها اليهود فى صدر الإسلام ..

وقد خرج إليها الرسول – صلى الله عليه و سلم - فى شهر المحرم و حاصرها بضع عشرة ليلة إلى أن فتحها في صفر، و كان القرآن الكريم ، قد بشر النبى- صلى الله عليه و سلم – بعد انصرافه من الحديبية، حيث نزلت عليه سورة الفتح بين مكة و المدينة ، و فيها قوله تعالى :-

"وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا"

(سورة الفتح الآية ٢٠)

و المقصود بهذه خيبر ، و قدم الرسول صلى الله عليه و سلم – المدينة فى ذى الحجة فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى محرم على الأرجح ، و كان ذلك عام سبعة من الهجرة النبوية .

كان المسير إلى خيبر بالليل ، حيث تتحقق مسألة تأمين الجيش ، و فى الوقت نفسه يفاجىء العدوّ الذى يبغى بالمسلمين شرّاً ، فتكون المفاجأة مؤثرة ، ولا يتمكن العدوّ من المواجهة الفعّالة التى تردّ المهاجمين ، وكان الرسول – صلى آله عليه و سلم – لا يُغير فى الليل ، ولكنه كان يغير فى الصباح ، لذا كان المسير في الليل أفضل بالنسبة للمجاهدين ، و كان عليهم أن يقطعوا الوقت بشىء يفيدهم و يقصر المسافة ، ويشبع وجدانهم و أفئدتهم و مشاعرهم ..ولم يكن غير الشعر ، أو الغناء الجماعى ، أى الإنشاد ، وهو ما اقترحه واحد من المجاهدين على عامر بن الأكوع ، حيث طلب منه أن يحدو بالقوم بشىء من هنيهاته، أى قصائده و أشعاره ، فارتجز أبياته التى جاءت فى مقدمة القصة النبوية .

و الشعر هو فن العربية الأول ، و هو الغناء بالمعنى الراقى ، حيث يعبّر عن مشاعر الأمة وأحاسيسها تجاه واقعها ، و ماضيها و مستقبلها ، و هو سلاح من أسلحة الدعوة ، وبث الهمة والعزيمة ، و هو صياغة للوجدان العام فى الاتجاه

الصحيح الذى يحضّ عليه الإسلام . لذا كان الانحراف به عن وظيفته الأساسية فى فى تربية الأمة خلقيا و عقديا و شعورياً يمثل انحرافاً عن الخط السليم ، و قد عانى الرسول – صلى الله عليه و سلم – من شعراء الجاهلية الذين كانوُا يوجهون إليه وإلى المسلمين قصائد الهجاء التى تنال منهم و تزرى بهم ، و قد حثّ الرسول – صلى الله عليه و سلم – شعراء الصحابة : حساناً و كعباً و عبد الله بن رواحة ، على الردّ عليهم ، و القصاص منهم ، و كان يقول لحسان : اهجهم وروح القدس معك، و قد نزلت الآيات الكريمة فى آخر سورة الشعراء تشير إلى ذلك :

"وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ"

(سورة الشعراء : الآيات ٢٢٤-٢٢٧)

وأرجوزة عامر بن الأكوع ، تقدم لنا نشيداً إيمانيا بسيطاً و صادقاً ، يتحدث عن علاقة المسلمين بربهم سبحانه وتعالى، فمنه الهدى و الغنى و الطاعة، و لذا يطمع المسلمون فى عفوه و غفرانه ، و تثبيته لهم يوم الزحف و القتال ، حتى يحققوا النصر على الأعداء ويبسطوا عزةّ الإسلام على الأرض ، و يقيموا العدل فى كل مكان، بفضل الله تعالى ، ثم بجهادهم و نصرتهم لدينه .. وهم يرجون أن يلقى الله عليهم السكينة و الطمأنينة حتى يواجهوا عدوّهم بثبات و يقين ، فهم حريصون على تلبية نداء الجهاد،و الامتناع عن طرق الانحراف والضلال، ولكنهم مع إغاثة المظلوم و الضعيف و طالب النصرة إذا استنجدبهم ، أو صاح عليهم ، لأنهم أهل مروءة و شهامة .

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ... و لا تصدقنا ولا صلينا
فاغفر فداءً لك ما اقتفينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا
و ألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عوّلوا علينا

شهيدٌ فى خيْبَر-٢

يشير سلمة بن الأكوع – رضى الله عنه – إلى ما أصاب المسلمين من مخمصة وهم فى طريقهم إلى فتح خيبر، وحين أمسى الناس يوم فتحت عليهم، أوقدوا نيرانا كثيرة، فقال رسول الله – صلى الله عليه و سلم : ما هذه النيران، على أى شىء، توقدون ؟ " **قالوا : على لحم : قال: عّلى أى لحم؟!** "

قالوا : على لحم حمر الإنسية : فقال رسول الله – صلى الله عليه و سلم : "**أهر يقوها و اكسروها**"، قال رجل : يا رسول الله، أو نهريقها و نغسلها؟ قال : "**أو ذاك**".

قال سلمة : فلما تصافّ القوم، كان سيف عامر فيه قصر، فتناول به يهوديا ليضربه، ويرجع ذباب سيفه، فأصاب ركبة عامر، فمات منه، فلما قفلوا، **قال سلمة** : رآنى رسول الله – صلى الله عليه و سلم – شاحباً. فقال لى :" **مالك ؟**"

قلت : فِدىً لك أبى و أمى. زعموا أن عامراً حبط عمله !

قال : "**من قاله؟**"

قلت : قاله فلان، و فلان، و فلان، فقال رسول الله-صلى الله عليه و سلم : " كذب من قاله، إن له لأجرين ".

وجمع بين إصبيعيه :" **إنه لجاهِدٌ مُجاهِد ، قلّ عربّىٌ نشأ بها مثله** ".

....

كان المسلمون يسيرون إلى خيبر، و قد استمتعوا بأرجوزة عامر بن الأكوع : " **اللهم لولا أنت ما اهتدينا** " وهو ينشدها حاديا الركب المجاهد، و يبدو أن حسن أدائه و شعره، قد جعل الرسول صلى الله عليه و سلم – يسأل عن الحادى أو السائق الذى يقود الركب بهذا الإنشاد الجميل، فذكروا له أنه عامر بن الأكوع"، فقال الرسول – صلى الله عليه و سلم – "**يرحمه الله**"، و هو دعاء يعنى أن صاحبه سيموت شهيداً. و هو ما عبر عنه رجل من المسلمين حين قال :" **وجبت يا نبىّ الله** ..

لولا أمتعتنا به " أى هلاّ أبقيته لنا لنتمتع به ، أى بشجاعته التى يعبر عنها من خلال إنشاده و حدائه ..وبقى عامر ليكون شهيداً كما تخبرنا القصة فيما بعد ..

فى مساء يوم الفتح ، كان المسلمون يوقدون النار ليطبخوا لحم حمر إنسية نتيجة الجوع أو المخمصة التى أصابتهم ولما رآهمالرسول-صلى الله عليه و سلم- سألهم عما يطبخونه و يوقدون عليه النار. فقالوا: على لحم. فسأل:"على أى لحم ؟!، قالوا :على لحم حمر الإنسية فقال رسول – صلى الله عليه: " **أهر يقوها و اكسروها** " مما يعنى أنها محرّمة الأكل ، أو غير جائزة ، ولا يتناولها مسلم ، و للحمر الإنسية أحكام فى فقه الذبائح تتحدث عن حرمتها..

و عندما سمع المسلمون أمر رسول الله – صلى الله عليه و سلم – بإهراق الأوانى ، أى سكبها على الأرض، و تكسير الأوانى التى كانت تطبخ فيها، قال رجل: يا رسول الله ، أو نهريقها و نغسلها ؟ إن الرجل رأى أن سكب الأوانى ثم غسلها يكفى . و هو ما وافق عليه رسول الله – صلى الله عليه و سلم – حين قال : " **أو ذاك**" أى الإهراق والغسيل .

و عندما تلاقى الفريقان ؛ المسلمون و أهل خيبر ، كان لعامر بن الأكوع ، حادى العيس بنشيده شجى ، حكاية أخرى أدت إلى استشهاده كما أخبر الرسول -صلى الله عليه و سلم- . فقد تقدم لمبارزة زعيم خيبر، وكان شخصاً ضخماً ، و كان فى سيف عامر قصر ، أدىّ إلى استشهاده .. إن سيف عامرلم يستطع أن ينال من خصمه، فارتد حدّه عليه وقطع أعلى ركبته ، مما أدى إلى وفاته ، فظنّ فريق من الصحابة أن عامر بن الأكوع قتل نفسه ؛ وتناقلوا هذا الظن ، حتى لا حظ رسول الله-صلى الله عليه و سلم- أن سلمة بن الأكوع – رواى القصة – شاحب اللون ، يبدو عليه التأثر و الأسى ، فسأله عما به ، فقال سلمة : فدى لك أبى و أمى ، زعموا أن عامراً حبط عمله !

وهنا سأله الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلم – عمّن قال ذلك ؟ أى من قال إنه خسر جهاده ، ولن تقبل منه التضحية فى سبيل الله و الإسلام .. و يخبر سلمة الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلم – بمن قالوا ذلك و تحدثوا به ..و لكن النبى- صلى الله عليه و سلم-يردّ بقوة على هذه الفرية:كذب من قاله إن له لأجرين".

إن تكذيب الرسول – صلى الله عليه و سلم – لمن حكموا بغير دليل ، و أفتوا بغيرعلم، يشير إلى ضرورة التثبت قبل الحكم ، و الفهم قبل الفتوى ، حتى لا تحدث بلبلة ، و يتقاعس المسلمون عن فعل الخير و التضحية فى سبيل الله .

عامر بن الأكوع له أجران ، و ليس أجر واحد ، و الذين تقوّلوا عليه ظناً منهم أنه تسبّب في قتل نفسه " **كاذبون**" بمعنى "**مخطئون**" فى حكمهم أو استنتاجهم ، لأن سيف عامر هو الذى قصّر فى مهمته لأنه قصير ، و لو أنه أصاب خصمه "**مُرحباً**" لقضى عليه ، و لكن الرجل تفادى الضربة ، فارتد السيف على صاحبه عامر فأرداه ، و تحققت الشهادة التى بشّر بها الرسول الكريم – صلى الله عليه و سلم – و هى الشهادة التى أكدها الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله " **إن له لأجرين** ".

وجمعه بين إصبيعيه قائلاً :" إنه لجاهِدٌ مجاهد ، قلّ عربىٌّ نشأ بها مثله "، و هذا وصف يضع عامراً فى ذروة الجهاد و المجاهدين ، و يصفه بالندرة أوالقلّة التى تشبهه فى جهاده وتضحيته ، فالرجل لم يقتل نفسه ، و لم ينتحر كما تصور البعض ، و الانتحار حرام كما نعلم ولكن السيف القصير كان هو السبب فى مصرعه لأن الخصم تفاداه ..فالشهادة هنا جاءت فى سياق المبارزة التى سبق فيها قضاء الله ، ليحقق الشهادة لمجاهد نادرفى إيمانه و شجاعته و إخلاصه .